مجلة قراءات علمية
في الأبحاث والدراسات القانونية والعلوم الإنسانية

العـــدد الثالث والثلاثون ـ يوليوز ـ 2024 ـ Number 33 ـ July ـ

مجلة قراءات علمية

في الأبحاث والدراسات القانونية والاقتصادية والعلوم الإنسانية

Scientific Readings Journal

in legal research and studies and human sciences

مجلة علمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والأبحاث في مجال العلوم القانونية والاقتصادية والعلوم الإنسانية والشرعية

مديرة المجلة:
الأستاذة حليمة عبد الرمي

رئيسة التحرير:
الدكتورة سامية رماش

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر وللمجلة ©

ردمد: ISSN: 2737-8322 الإيداع القانوني: 02 ن د 2021

Majalatkiraat@gmail.com www.allbahit.com

م.م. محمد علاء المنصوري
جامعة البصرة / كلية التربية . القرنة

زينب حامد منصور
وزارة التربية - تربية البصرة

صور التمرد في شعر ابن بسام البغدادي

Images of rebellion in the poetry of Ibn Bassam al-Baghdadi

ملخص:

يحاول هذا البحث أن يسلط الضوء على صور التمرد المختلفة عند أحد شعراء العصر العباسي وبيان أسبابها، فقد اشتهر ابن بسام بفن الهجاء والنقد والسخرية والتمرد دون أن يعبأ لخوف في ذلك، وربما ذلك يعود لما عاناه الشاعر من و اقع مترد في مختلف جو انبه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فتراه تارة يسلط سهام هجاءه نحو الأب والأم , وتارة أخرى محتجًا على أصحاب السلطة، بالإضافة إلى تمرده على بعض الأعراف المجتمعية والقيم الإسلامية التي كانت سائدة في عصره ، متجاوزًا عليها خارجًا على حدودها ومخالفًا لها. الكلمات المفتاحية: صور التمرد، التمرد الديني، التمرد الاجتماعي، التمرد السلطوي، أشكال التمرد.

Abstract :

This research attempts to shed light on the different forms of rebellion among one of the poets of the Abbasid era and to explain their causes. Ibn Bassam was famous for the art of satire, criticism, sarcasm, and rebellion without being concerned about it. Perhaps this is due to the deteriorating reality that the poet suffered in its various economic, social, and political aspects . You see him sometimes directing his satire towards the father and mother, and at other times protesting against those in authority, in addition to his rebellion against some societal norms and Islamic values that were prevalent in his time, transgressing against them, going beyond their borders and violating them.

key words : Images of rebellion, religious rebellion, social rebellion, authoritarian rebellion, forms of rebellion .

التمهيد:

التمرد بين اللغة والاصطلاح:

إنَّ من معاني التمرد من الناحية اللغوية تجاوز غاية الشيء أو الخروج على الطبيعي والمعتاد ، فقد ورد في لسان العرب " المَارِد : العاتي . مَرُدَ عَلَى الأَمرِ، بالضم ، يَمْرُدُ مُرُدًا ، فَهو مَارِدٌ ومَرِيدٌ ، وتَمَرَّدَ : أَقْبَلَ وَعَتا ، وتَأْويلُ المُرُود أَن يبلغَ الغايةَ الَّتي تخرجُ مِن جملةِ مَا عليهِ ذلكَ الصِّنْف التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصِّنْف . والمِرِّيدُ: الشديدُ المَرادةِ مثل الخِمِّيرِ والسِّكِّير. و المارِدُ من الرجال: العاتي الشديد، وأَصله من مَرَدة الجن والشياطين , وقال ابن الأَعرابي: المَرْدُ التطاول بالكِبْر والمعاصي ؛ ومنه قوله تَعالى : ((مَرَدُوا عَلَى

النِّفَاقِ)): أَي تَطاوَلوا . والمَرادةُ : مصدر المارِدِ، والمَرِيدُ: من شياطين الإِنس والجن . وقد تَمَرَّدَ علينا أَي عَتا. ومَرَدَ على الشرِّوتَمَرَّد أَي عَتَا وطَغَى "[2063] .

وقد ورد في معجم مقاييس اللغة : " المَارِد : العَاتِي ، وكذَا المَرِيد ، كَأَنَّه تجرَّد مِن الخيرِ" [2064] فالتمرد هو الخروج عن الوضع الطبيعي , أو المبالغة في فعل شيء خارج العادة الطبيعية له , ومجاوزته حد الاسراف والمبالغة , أو الإتيان بشيء من الممنوعات عرفًا أو دينًا أو قانونًا .

أما من الناحية الاصطلاحية فقد كثرت تعريفات التمرد بحسب طرق المعالجة لظاهرة التمرد عند الانسان وبحسب تفرع العلوم وتعددها ، وعند النظر الي التمرد من زاوية علم الاجتماع فنجده يعرف بأنه " ظاهرة اجتماعية ، يلخصها سوء التكييف مع قوانين المجتمع التي تفرض على الفرد، وهو في نظر بعض النقاد ، ضعف القدرة على التكييف الاجتماعي نتيجة التضارب والتصادم بين القيم ، والهروب من سوء التكيف والثورة على الفشل في التكيف مع المعايير المجتمع الذي يعيش فيه "[2065] , فالتمرد بمثابة ناقوس الخطر يتلقاه المجتمع ، أو نداء موجه إلى الآخرين بقصد حثهم على البحث والاسهام في الكشف على الحقيقة ، وهي دلالة التمرد الاجتماعي التي تنذر بؤر التسمم في قيم المجتمع , وكذلك حل وبناء وهنا تكمن إيجابية الظاهرة , فإن التمرد ليس دائمًا ينحو منحًا سلبيًا أو معارضًا للخير والإصلاح , كما أنه ليس كل التمرد صورة ضد الأوضاع السيئة والظروف الخاسرة , وليس التمرد دومًا فضيلة وشجاعة , إنما الأمر يتبع دواعي ذلك التمرد وأسبابه ومعطياته ونتائجه والسلوك فيه[2066] .

ومن وجهة نظر سياسية فيمكن أن يعرف بأنه تلك الحركة التي يرفض بها الفرد الوضع السياسي والثورة على الجهات المتنفذة في السلطة , ورفض ممارساتها والوقوف ضدها .

أما من المنظور النفسي فيعرف بعض الباحثين التمرد على أنه " نمط سلوكي مبالغ فيه ، خارج عن حد المألوف أو حد السواء ، وهو شعور بالرفض لكل ما يحيط بالفرد ، وما يترتب عليه من سلوك قد يتصف بالعداء والكراهية والازدراء لكل ما اصطلح عليه المجتمع من قيم وعادات ونظم, أو هو السلوك الرافض لكل ما استقر عليه المجتمع ، وألفه من عادات وتقاليد "[2067] .

فالتمرد بشكل عام معارضة أو شكل من أشكالها يوجهه فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعات ضد وضع من الأوضاع التي لا تليق بهذا الفرد أو الجماعة , والخروج على المتسبب بهذا الوضع[2068] . فهو محاولة من قبيل وضع الحد أو الخروج على طغيان الوضع القائم والمتسببين به بعد أن صار هذا الوضع متجاوزًا لكل حدود المقبولية والحالة الطبيعية التي ينبغي أن يكون عليها , فعندما ما يواجه الإنسان وضعًا سياسيًا أو اقتصاديًا أو ثقافيًا أو فنيًا لا يرتبط به فقد يخرج على هذا الوضع من أجل تغيره , أو من أجل إعلان عدم الالتزام بضوابطه وقوانينه ومعطياته ونتائجه .

وصور التمرد وأشكاله متعددة ومتنوعة فهناك التمرد الديني والسياسي والاجتماعي والفني وغير ذلك , ولكن تبقى أوضح صورة وظاهرة للتمرد وأكثرها انتشارًا من بين ظواهر التمرد الأخرى هي ظاهرة التمرد الاجتماعي , حيث تكاد تكون أُم الظواهر الأخرى , أو هي الجامعة لكل معاني التمرد وأشكاله وصوره .

ولقد تنوعت صور التمرد عند ابن بسام , فمن يحاول الاطلاع على ديوان ابن بسام سيكتشف أن أغلب شعر هذا الديوان هو في الهجاء , فيشكل الهجاء والصراع مع الآخرين قوام شعره , ولا غرابة في ذلك حيث وصف ابن بسام بشاعر الهجاء , أو هجاء الوزراء وغيرها من الاوصاف والألقاب , وكذلك يحسب من شعراء الهجائيين في العصر العباسي إذا لم يكن من أبرزهم جميعًا؛ وذلك لأن شعر الهجاء عنده يتميز بميزتين عن شعر

([2063]) . لسان العرب : 13 / 70 .

([2064]) . معجم مقاييس اللغة : ٥ / ٣١٧ .

([2065]) . شعرية التمرد : ٢٨ .

([2066]) . ينظر : التمرد في السير ذاتي النسائي العربي المعاصر : ٦.

([2067]) . المصدر نفسه , الصفحة نفسها .

([2068]) . ينظر : التمرد في شعر العصر العباسي الاول : ٥ .

غيره : أولهما أن الهجاء يمثل أغلب شعر ديو انه ، وثانيهما أن هجاء ابن بسام تجاوز حدود الهجاء المألوف حيث يذهب إلى هجاء أفراد اسرته أخيه و أبيه وزوجة أبيه بأبشع الأهاجي ورميهم بأكبر المثالب ، ولم يسبقه في ذلك إلا نفر قليل من الشعراء و أبرزهم الحطيئة الذي وصل به الأمر إلى هجاء نفسه , وعلى الرغم من أن المعرفة التي تقدمها لنا كتب التراجم والأخبار والسير ليست كافيه من أجل الإحاطة بسياقات وأحداث ومناسبات شعر ابن بسام فضلًا عن المعرفة القليلة في ما يخص حياته , ولكن لو نظرنا نظرة فاحصة متأملة للديوان سوف نأتي بالكثير من معرفة حياته وشعره ومناسبات القول فيه وتحولات حياته المختلفة وأسباب تمرده وامتعاضه من الجهات التي تمرد عليها .

ولعل أبرز الأسباب التي أثارت ابن بسام نحو التمرد هو أن الفترة التي تلت فتره شبابه عانى فيها بشيء من ضيق الحال , والتخلي من قبل الكثيرين ممن كان حوله عنه , وهذا عائد إلى توقف أبوه عن الانفاق عليه , وربما هذا هو السبب العام في تمرده , ومما يرجح أنه لزوجة أبيه دور كبير في ذلك أي بحث أبيه ودفعه على عدم مساعدته والانفاق عليه , فصار يهجو أبيه وزوجته وأخيه , وهكذا صار يهجو الوزراء والخلفاء ؛ لأنهم أما قصروا بعطائهم له أو نقضوا مما وعدوه به من عطايا , وكما سنبينه بالشواهد الشعرية له من خلال إبراز ملامح التمرد فيها .

أولاً. التمرد على السلطة :

إن ابن بسام قد تمرد وهجا أغلب رؤوس السلطة في زمانه , و إنه لم يستثنِ الكثيرين ولكنه خص جماعة من الوزراء والرؤساء في الكثير من هجائه مثل ابن الفرات وغيره , حيث يقول في هذا الأخير[2069] :

كيفَ تستوثق الأمور وتصفو ومدار الدنيا على ابن الفراتِ

وفي قول آخر يزعم أن ابن الفرات قد تقلد الوزارة ثلاث مرات في حياته , وفي إحدى هذه المرات كان قد كلف بناء على كتاب من بعض النصارى للخليفة يطلبون منه توليه , وهذا ما أثار ابن بسام إلى هجاءه بعد أن عرف بذلك منكرًا تولية ابن الفرات للوزارة ومن ولاه الوزارة , وكذلك هاجيًا له ولابن الفرات مندداً بتدخل النصارى في تولية وعزل من يريدون ومن لا يريدون حيث يقول[2070] :

إذا حكمَ النصارى في الفَروجِ وَبَاهو بالبِغَالِ وبالسُّروجِ
فقلْ للأعورِ الدجالِ هَذاْ أَو آنكَ إنْ عَزَمْتَ عَلَى الخُروجِ

والغريب في تمرد ابن بسام هو أن السلطة لم تكن تشجبه أو تعاقبه حتى بعد أن عرفت بميوله نحو العلويين , وشيوع بعض قصائده في مدحهم ونصرتهم ولاسيما القصيدة التي قام بهجاء المتوكل فيها بعد أمره في هدم قبر الإمام الحسين (عليه السلام) كما يوضح كل هذا محقق الديوان في المقدمة .

ولعل السبب الأهم من وراء تمرد ابن بسام على السلطة هو منعهم العطاء عنه , لذلك نجده يصرح في أكثر من موضع في شعره بذلك , فقد كان ابن بسام يحاول مرارًا وتكرارًا التقرب من الأمراء والوزراء الذين وصف بعضهم بالحيو انات , ولكنه لم يظفر في العطاء ولم يستعد كرامته التي أهدرها وهو يداري من لا يستحقون ذلك حيث يقول[2071] :

سجدنَا للقرودِ رجاءَ دنيَا حَوَتهَا دوننَا أَيدِي القرودِ
فَمَا نَالَتْ أَنَاملُنَا بِشيءٍ عَمَلَنَاهُ سِوَى ذُلّ السجودِ

ولم يكتفِ ابن بسام بهجاء رجال الدولة وهم في المناصب أو وهم أحياء , وتعدى ذلك في هجائهم حين عزلهم , أو حين وفاتهم فعندما قتل (كرب الدواء) , وهو العباس بن الحسن وزير المكتفي , وقد قتل في أول خلافة المقتدر قال ابن بسام فيه[2072] :

قَد أُرحنـا مِن بَلاء وَمَضَى كَرْب الدواءِ

([2069]) . ديوانه : 31.

([2070]) . ديوانه : ٣١ .

([2071]) . ديوانه :٣٤.

([2072]) . ديوانه : ٢٥.

كانَ واللهِ عَلَى الصّح ... حـةِ غيـظ العقلاءِ

وبعد أن ضاق الحال بابن بسام , ويئس من عطايا الحاكمين , ومن صلاح أمرهم نحوه ونحو الناس صار يتشاءم بهم , ويتثاقل منهم حتى قبل توليهم أو أثناء ذلك , فنجده يهجو أكثر من واحد منهم , وينعته بأشنع النعوت حتى قبل توليه أو في أثناء ذلك , ومن أشعاره في هذا الصدد[2073] :

قَالوا خَليفتنا قَد ماتَ قلتُ لَهُم فِي الكلبِ منهُ وَفي أَمثاله خلفُ

حَتى إِذا قامَ شرّ منهُ قلتُ لَهُم الآن طـابَ عليهِ الهـمّ والأَسـفُ

وهذا الشعور باليأس والاحباط حال دون أي تغيير واصلاح إنما ينبئ عن سوء الأوضاع المعيشية العامة بالنسبة للناس في ظل هكذا حكومات ووزارات من جهة , وكذلك ينبئ عن سوء حالة الشاعر المعيشية من جهة أخرى ، ولما كان الوضع غير قابل للاصلاح فإن الغاية من وجهة نظر الشاعر والحل المتاح هو أن لا يبقى أحد من هؤلاء المتنفذين لفترة أطول , ولا بد من اتخاذ طرق أخرى غير الاصلاح الجذري وهو أن تشارك الناس بعزل الحاكم لكي يتعظ الذي يأتي بعده وصارت الدعوى إلى عزل الحكام والخلفاء والأمراء من الأمور المألوفة في زمن الدولة العباسية الذي عاصره الشاعر[2074] :

سنصبرُ إذْ وليتَ فَكم صبرنَا لمثلكَ مِن أميرٍ أَو وزيرِ

ولمّا لَم ننلْ مِنهُم سـرورًا رأينَا عَزلهم كلّ السرورِ

وحين يتوسم ابن بسام بأحد الامراء والوزراء خيرًا يهب لمدحه , وحين يخذله ذاك الوزير ويقرب غيره إليه يعود ليهجوه بعد الخذلان ونقض الوعد منه , حيث يقول في علي بن عيسى الوزير[2075]:

رجوتُ لكَ الوزارةَ طول عُمري فَلما كانَ مِنهَا مَا رجوتُ

تَقدمني أُناسٌ لَم يَكونوا يرومونَ الكلامَ إِذَا دَنوتُ

ثانيًا . التمرد على المجتمع :

لقد تحدثنا عن أهمية التمرد الاجتماعي و أثره في كل أنواع التمرد الأخرى في التمهيد لهذا البحث , حيث إن التمرد الاجتماعي له صلة في ظواهر التمرد الأخرى من جهة , وتدخل في حيزه عدة أنماط من التمرد السياسي والديني وغيرها من جهة أخرى , واللافت للنظر أن بعض الباحثين يعتبر مجموعة ظواهر التمرد السياسي والديني من قبل ظواهر السرقة والسلب المنظم كما عند العباسيين في العصر العباسي من قبيل التمرد الاجتماعي على الرغم من كون المجتمع في ذلك الوقت تأسس معتمدًا على المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية , فالمجتمع العربي في وقتها لا يستطيع أن يكون مجتمعًا بالمعنى الحديث , إنما كان يعاني شيء من الفوضى الاجتماعية والرواسب والعادات التي يعود أغلبها إلى عصر ما قبل الاسلام , وبالتالي فإن شكل وتمظهر التمرد الاجتماعي لا يخلو من أصل سياسي من جهة , وكذلك لا يخلو من استعمال الادوات المألوفة من جهة أخرى , كالهجاء واللغة الجارحة , ومهاجمة الاشخاص لا العادات والتقاليد .

وإذا أتينا إلى طبيعة وشكل التمرد الاجتماعي عن ابن بسام فسنجده خليطًا من السخط السياسي والاجتماعي باتجاه أشخاص معدودين ومميزين دون سواهم من سائر أفراد المجتمع , وهذا أول ما يميز تمرد ابن بسام على المجتمع , وأما من ناحية أخرى فإن هذا التمرد غالبًا ما يكون سببه المصلحة الشخصية للشاعر وخصومات تسبب له بها وضعه الاقتصادي والمعيشي , بالإضافة إلى مجموعة قليلة من مقطوعات التمرد التي يذهب بها لمهاجمة طبقة من الناس أو جماعة خارج اطار مصلحته الشخصية , كسخريته من اشتغال المرأة في التجارة أو في الكتابة والعلم وغيرها من الأعمال , وإذا أمعنا النظر في هذا الجانب من نقده لوضع المرأة الجديد في العصر العباسي فسنجده متمردًا على الوضع بصورة سلبية , أي أنه لا يريد للمرأة أن تكون خارج اطار فراش الرجل وأعمال البيت , وبهذا المعنى فان تمرد ابن بسام هنا تمردًا وهميًّا لا يتصالح مع شروط الحياة الجديدة , والتطورات الحاصلة في المجتمع والسياسة والمعرفة , فهو يستنكر على المرأة سعيها نحو التكامل والرقي وتهشيم الصورة النمطية العتيقة التي سولت عليها منذ العصر الجاهلي , وهي أن المرأة غير

([2073]) . ديوانه : 50.

([2074]) . ديوانه : 40.

([2075]) . ديوانه : 30.

قادرة إلا على دور الانجاب ورعاية البيت والسهر على راحة الرجل وتربية أطفاله , ولا ينبغي لها أن تنافس الرجل في أعمال السوق والمعرفة , ولكن مع ذلك لا يمكن قياس أو محاكمه أفكار ابن بسام الواردة في شعره على أساس التطورات الحاصلة في عالمنا المعاصر, وفي وضع المرأة المعاصرة على وجه الخصوص , ولكن شتان بين تمرد ابن بسام من هذه الناحية وبين تمرد شعراء العصر الحديث بالنسبة لموضوع المرأة بداية من شعر الزهاوي والرصافي و انتهاء بالشعراء المعاصرين الذين شجعوا المرأة وناصروها من أجل استكمال أدوارها في الحياه وفي البيت وخارج البيت , ومن خلال هذا النقد الساخر والجارح لوضع المرأة الجديد يتشكل تمرد ابن بسام الرجعي تجاه المرأة والمجتمع الجديد حيث يقول[2076] :

مَا للنساءِ وللكتا بةِ والعمالةِ والخطابهْ
هَذَا لَنَا ولَهنّ مِنّ نا أَن يبتن عَلى جنابهْ

وهذا الشكل من أشكال التمرد قد يعود الى رؤية ضيقه في فهم حركة المجتمع الجديد وتطوره , وإذا نظرنا الى نمط من آخر من أنماط التمرد الاجتماعي عند ابن بسام وهو لا يخلو من تداخل مع التمرد على السلطة , فنجده يستنكر وضع الشخص غير المناسب في مكان من المسؤولية والقيادة والأمرة في كل جو انب الحياة ووظائفها , لذلك نجد من جهة يرى أنهم ليسوا أصحاب كفاءة , ويرى نفسه أصلح لهذه الأدوار والمسؤوليات من هم من جهة أخرى , وهذا قوله في جماعة أتى بهم الوزير أسد بن جهور لشغل مناصب تخص البريد والكتابة والأدب , وهو يرى نفسه أكثر كفاءة من هم قائلًا[2077] :

تعسَ الزمـانُ لَقَد أَتى بعجـابِ وَمَحَا رسومَ الظرفِ والآدابِ
أَو مَا ترى أسد بن جهور قَد غَدا متشبـهًا بأجلّـه الكتّابِ
و أتى بأقوامٍ لو انبسطتْ يَـدي فِيهم رَددتهم إِلى الكتّـابِ

وهذا الشكل من أشكال التمرد على الأرجح لا يعود لكون ابن بسام ينتقد سوء الإدارة وسوء اختيار الأشخاص في المو اقع الحساسة , أو حتى اختيارهم للمجالس وليالي السهر, إنما الاعتراض مقابل عدم اختياره هو وتفضيل الاخرين بدلًا عنه ، وهذه الملاحظة ليست بعيدة عن سلوك ابن بسام ولا سيما أن بعض شعره يصرح بها تصريحًا يكاد يكون بدرجة عالية من الوضوح , فبعد أن فشل في استمالة الحكام والمستبدين من أجل الظفر بعطائهم صار يذهب إلى التهديد والوعيد الذي يطال أعراضهم , ومكانتهم الاجتماعية إن لم يسبغوا عليه عطاياهم , أو يجدوا له عملًا يتمتع به ويحسن من حالته المعيشية والاقتصادية , إذ نجده يقول في مقطوعات من شعره[2078] :

قلْ للرؤوس ِوَمَنْ تُرجى نو افِلُهُم ومَنْ يؤملُ فيه الرفدُ والعملُ
إِنْ تشغلُوني بأَعمَالٍ أصيّرهـا شغلاً وإلاَّ فَفِي أَعْرضِكُم شغلُ

وهذا النمط من الخصومة مخصوص وموجه لأناس بعينهم من أهل المال والسلطة و ابن بسام في هجاءه لا يطال عامة الناس والمجتمع بأكمله إنما يتوجه لمن يكون على مقربة أو علاقة من مصالحه المادية وحاجاته المعيشية , وعلى الرغم من ذلك فأننا نجد له من الشعر ما يتوجه الي الناس كافة إذا ما اعترضه أحد منهم في عرضه وماله وسمعته فهو يقول في أحدى مقطوعاته[2079] :

مَنْ هَجَانِي مِنِ البريّةِ طرًّا وَسَعَى فِي مساءتِي أَو لَحَانِي
فاللو اتِي عَلَيهِ حَرّمهنّ اللَّـ ـهُ فِي سـورةِ النسـاءِ زَوَانِي

وهو هنا ليس كعادته يهاجم فئة معينة من الناس بل يهاجم كل الناس الذين من الممكن أن تحصل بينه وبينهم خصومة أو عداوة , وهذا الشكل من التمرد يكاد يكون أضيق صور التمرد الممكنة حيث ينطلق الشخص من خلاله إلى مراعاة وضعه الشخصي تجاه مجموعة من الناس بينه وبينهم خصومة ظرفية و آنية ,

---

([2076]) . ديوانه : 30 .

([2077]) . ديوانه : ٢٧-٢٨ .

([2078]) . ديوانه : 53.

([2079]) . ديوانه : 62.

وليس لها علاقة بأوضاع الجماعة أو المجتمع الذي يعيش فيع , وبالتالي فإن هذا الشكل من التمرد تابع من حالة الفرد الاجتماعية والمعيشية وليس بالضرورة أن تعبر هذه الحالة عن وضع جماعة من الناس بحيث يكون المتصدي للموقف وهو الشاعر ناطقًا باسمهم , أو معبراً عن هجومهم , بعيدًا عن همومه ومعاناته الشخصية الضيقة ، وإذا ذهبنا إلى نمط آخر من التمرد الاجتماعي في شعر ابن بسام وأغلب الظن أن هذا النمط يعود إلى آخر فترات حياته وما يرجح ذلك هو أن ابن بسام صار أقل عدو انية وخصومة في هذا النمط , فإمّا أن يكون تقدم العمر سببًا في ذلك , وإمّا أن يكون ابن بسام قد يئس من عطاء من يخاصمهم ويطلب عطاياهم , وكذلك يغلب على هذا النمط من التمرد شيء من الأسلوب الوعظي والصريخ بالاكتفاء من الدنيا والقبول بحالة من الكفاف والزهد على غير شعر الشباب وأساليبه المتشنجة والعدو انية ، فبدل لوم الناس يحل لوم الزمان والإقرار بحال الدنيا وتقلبها والقبول بشيء من القناعة والإقرار بتقلبات الزمان، يقول[2080] :

وَإِنْ نَبا مَنزل بحــرّ فَمِن مَكَانٍ إِلَى مَكَانِ
لَا يلبث الحرّ في مَكَانٍ ينسب فيهِ إِلى هوانِ
الحرّ حرّ وإن تعــدّتْ عَلَيه يَومًا يَدُ الزمـانِ
والنذلُ نذلٌ وإن تكنّى وَصارَ ذَا منطقٍ وَشانِ
فأسترزقِ الله واستعنهُ فإنَّهُ خيـرُ متســعانِ

ومع أسلوب الكفاف هذه وإلقاء اللوم على الزمان والقبول بمشيئة الله وقضائه والزهد بمغريات الدنيا والحفاظ على ما تبقى من الحرية والكرامة , فإن ابن بسام يعود بعد ذلك لكي يضيف إضافة أخرى في شعره المتأخر وهذه الإضافة تنمُ في شعره الذي غلب عليه طابع الترفع والأنفة من أن يُقال له أن فلان فضل عليك وهنا يتنكر لمو اقفه السابقة ومن الذين يرجوا عطاءهم وبتوسل سخاءهم لكي لا يقال له أن لفلان عليك فضل[2081] :

رضيتُ بالقوتِ مِن زَمَانِي وصنتُ عرضِي عَنِ الهوانِ
مخافةَ أَن يقـولَ قـومٌ فضلَ فُلَان عَلَى فــلانِ
مَنْ كنتُ عَن مَالِه غَنيًّا رَأَيتُهُ مثلَ مَـا يرانِـي
أزورهُ إِنْ أَرادَ وصــلّي وَ أقطعُ الوصلَ إِنْ جّفَانِي
فأستعنِ اللهَ عَن فلانٍ وَعَن فــلانٍ وَعَــن فــلانِ[1]

وبهذا يكون التمرد عند ابن بسام ونقصد هنا التمرد الاجتماعي قد كان مرهونًا ومتعمدًا على الجانب المعيشي والاقتصادي , وتقلبات الزمن و آثارها , وكذلك روح الشباب وعنفوانها , كما روح الشيخوخة ومرونتها وزهدها بالحياة والاقرار بنصيب الإنسان فيها ؛ لأنه مغادرتها لامحالة سواء بالغنى أو بالفقر ، بالترف أو الفاقة والجوع ، وبالعمل الصالح أو العمل الطالح .

ثالثًا . التمرد الديني :

شهد العصر العباسي الأول مجموعة من ظواهر التمرد الديني , وكان من رواد تلك الظواهر إما فرق تميل الى عقيدة دينية مخالفة لما هو شائع من العقيدة الدينية الاسلامية , وإما تكون هذه الطواهر قد تشكلت عل أساس انحر افات بعض الأفراد دون الاعتماد على عقيدة معينة من داخل الاسلام أو من خارجه إنما نتيجة لظروف العصر والتحولات الحاصلة في حياة الناس , والتخالط مع أقوام من أجناس وديانات مختلفة , وقد عرفت بعض الفرق العقائدية المتمردة بأسمائها أو أسماء المروجين لها , وأغلبها قد انطلق من خارج مركز الخلافة العباسية , مثل حركة البهافريد التي كان منطلقها من نيسابور , وحركة سنباذ التي ادعت ربوبية الخليفة المنصور, وكذلك حركة الراوندية نسبة إلى ابن الراوندي في نيسابور[2082] وغيرها من الحركات الأخرى , ولكن عند العودة للتمرد الديني عند ابن بسام فإننا لا نلحظ تمردًا عقائديًا , أو نظريًا في شعره مثل ما هو موجود عند شعراء التمرد العقائدي الذين لديهم مشكلات نظرية مع بعض المباني العقائدية , وكذلك لا

([2080]) . ديوانه : ٦١.

([2081]) . ديوانه : ٦١ .

([2082]) . التمرد في شعر العصر العباسي الأول : ٨٠ .

نلحظ أنه ينتمي إلى فرقة أو جماعة عقائدية منظمة , أو على الأقل أنه لم يصرح بذلك ولم تخبرنا كتب الأخبار عن هذا الأمر, لكننا نستطيع القول أن التمرد الديني عند ابن بسام جاء على أساس مخالفات سلوكية تخالف المشهور من تعاليم الدين من جهة , وقد كانت مألوفة بين بعض الشعراء في هذا العصر من جهة أخرى , ومن هذه المخالفات مثلًا المجاهرة بالفسق والفجور, وشرب الخمر والتنمر, والغزل بالغلمان , وما إلى ذلك , وسوف نأتي على شواهد تلك المخالفات تباعًا كما صرح بها شعر ابن بسام .

يقول ابن بسام في مجال تفضيله الخمرة على سائر المشروبات وهذا الإناء مخالفة دينية كبيرة[2083] :

خلّ عَني لَست مِن أربِي أربِي في الكأسِ وَالطربِ
دونكَ العَذبُ الزُلَالُ وَلِي سعة في صفوةِ العنَبِ

ومثل هذا تكاد تنحصر مخالفات ابن بسام الدينية بين المجاهرة بشرب الخمرة , والتغني بها , والميل إلى غزل الغلمان وتفضيلهم على النساء , يقول في أحد أبياته[2084] :

وَأَهوَى المردَ والشبانَ طرًّا وَلا أبغِي مواصلةَ الكعابِ

و كذلك نجده وقد رأى صبيًا جميلًا , ولكن تقدم العمر وذهب بجماله الذي كان في صباه وقد نبت الشعر على وجهه[2085] :

قَالُوَا تَغَيّر عَن ملاحته قلتُ الزمانُ يريكمُ العِبَرا
يا زهرة ومحاسنًا مسختْ مَاذَا لَحَاهُ الشعر لَو شَعرَا
قَد كَانَتِ الأبصارُ تجرحُهُ وَاليوم يجرحُها إِذَا حَضرَا

وبالنسبة لمخالفة وتمرده على الطقوس الدينية والعبادات ولا سيما في الأشهر المعروفة بخصوصيتها الدينية كشهر رمضان , فإذا كان الناس يقضون هذا الشهر بالعبادة والذكر فإن ابن بسام يضيق ذرعًا بهذا الشهر وعندما يتجاوز الشهر العشرين من أيامه نجده يطير فرحًا ؛ لأنه بعد ذلك يعود إلى الخمرة ومجالس اللهو والطرب التي حُرم منها في هذا الشهر يقول[2086] :

قَد قربَ الله يَا ذَا كُلّ مَن شسعَا كَأَنّني بهلالِ الفطرِ قَد طَلَعَا
فَخذْ لِلهوكَ فِي شَوالِ أَهبتُه فإنَّ شهرِكَ فِي الواواتِ قَد وَقفَا

وقد تكون هذه التمردات في بداية الشباب و أيام الوفرة والعيش الرغيد دون أن تتعدى ذلك إلى بقية أيام ابن بسام .

رابعًا ـ التمرد على الأبوين : إن التمرد على الوالدين أو أفراد الأسرة والأقربين ومخاصمتهم في الشعر العربي قليل ونادر جدًا , وقلما نجد شاعرًا قد خاصم أفراد أسرته أو تحامل لهجائهم حتى في حال وجود خصومة بينه وبينهم , وإذا انتقلت هذه الخصومة إلى الشعر نجد أن المعاني عامة وغير متخاصمة تجاه الشخص المعني , ولكن في حالة ابن بسام فالأمر مختلف تمامًا , فإنه عرف بهجاء أبناء أسرته أخيه و أبيه وزوجة أبيه , و أكثر في هجاء الآخرين بشكل خاص , ويعود السبب الأهم في هذه الخصومة بين ابن بسام و أبيه إلى عدة أسباب وقد نجهل بعضها ولكن السبب الأهم هو بخل أبيه تجاهه , وكذلك قيام زوجة أبيه بإفساد العلاقة بين الاثنين بحسب ما يذكره محقق الديوان في المقدمة , وكان قطع العطاء المادي من قبل الأب له الأثر الأكبر في حياة ابن بسام وهذا هو سبب الخصومة الأهم , والذي جعله يتهم أباه بالبخل (التقتير) ، ولكن شعر ابن بسام يلتفت أيضًا إلى دور زوجة الأب في إفساد العلاقة بينه وبين أبيه يقول في زوجة أبيه[2087] :

إذ عركتْ قَادتْ ، إنْ طهرتْ زنتْ فَهي أبدًا يزنَى بِهَا ويقودُ [2]

([2083]) . ديوانه : 28 .

([2084]) . ديوانه : ٢٨ .

([2085]) . ديوانه : 39.

([2086]) . ديوانه : 48.

([2087]) . ديوانه : 33 .

وبالرغم مما عرف عن والد ابن بسام من حب الدنيا ويسر الحال , وبناء القصور والتنعم بملذات الحياة إلا أنه يبقى في عين الابن بخيل , وإن كان يشيد القصور ويبنيها ، يقول في ذلك[2088] :

بَنَى أبو جَعْفَر دارًا فشيّـدَهَا وَمِثْله لخيارِ الـدورِ بَنّاءُ
فالجوعُ داخلُها والذلُّ خَارِجـهَا وَفِي جَوَانبِها بؤسٌ وَضَرّاءُ
مَا ينفعُ الدّار مِن تَشييد حَائطها وَلَيسَ دَاْخِلها خبزٌ وَلا ماءُ

فالأب حتى وإن بنى القصور إلا أنه يعيش حياة الفقر والذل فيها ؛ لأنه بخيل ولا ينفق على عياله حتى في سبيل أبسط مستلزمات العيش من طعام وشراب وغير ذلك ، ومن خلال هذه المقطوعة وغيرها من الشواهد نستطيع أن نقول أن الوالد لم يكن بالضرورة بخيلًا , وقد عرف عنه تشييد القصور والحياة المرفهة إلا أن ابن بسام أراد ذريعة يتمسك بها لنعت والده بالبخل , فلم يجد غير أنه وإن كان يبني القصور وهو المشهور عنه إلا أنه بخيل في الإنفاق على مستلزمات الحياة الأخرى , وهذه المستلزمات خاصة ومعروفة لدى أبناء أسرته , أما بناء القصور فهو الظاهر الذي يعرفه عامة الناس , وكذلك يذهب استنكار ابن بسام و يطال حتى الحالات التي يمكن أن توحي بكرم أبيه , وهذا يشمل ما عرف عنه من إقامة الولائم ولكن حتى إقامة الولائم فيها من المثالب التي تجلى فيها بخل الرجل (الأب) ومن قوله في ذلك[2089] :

خَبيصَةٌ تُعقَدُ مِن سُكَّرَه وَبُرمَـةٌ تُطبَخُ مِن قُنبَـرَه
عِندَ فَتىً أَسمَحَ مِن حاتِمٍ يَطبُخُ قِدرَينِ عَلى مِجمَرَه
وَلَيسَ ذا في كُلِّ أَيّامِـهِ لكِنَّهُ في الدَعوَةِ المُنكَرَه
في يَومِ لَهـوٍ فَظِعٍ هائِلٍ مَجمَـعِ اللَذّاتِ وَالقَرقَـرَه
يَقــولُ لِلآكِلِ مِـن خُبزِهِ تَعسًا لِهذَا البَطنِ ما أَكبَرَه

فالولائم عنده ليست متاحة دائمًا , و إنما فقط في حالات الإحراج والإكراه , وحتى وإن حدثت و أُقيمت فهو يشجب أكل الآكلين فيها , وإذا كان القصر من القصور الجميلة والفراش من الفراش الفاخر , والأثاث من أجواد الأنواع , فهذا فقط للتباهي والادعاء , وهو يضمر تحته البخل الشديد, وحياة الفقر والجوع والحرمان من أبسط الأشياء , فيقول في ذلك[2090]:

دارُ أَبي جَعْفَر مَفْرُوشَـةٌ مَا شِئتَ مِن بُسطٍ وَأَسماطِ
وَبَعْدُ مَا بَينكَ مِن خُبزِهِ كَبُعدِ بَلخٍ مِن سُمَيـساطِ
مَطْبَخُهُ قَفْزٌ وَطَبّـاخُهُ أَفـرَغُ مِـن حَجّامِ سـاباطِ

إن الشواهد الموجودة في الديوان والتي يهاجم بها ابن بسام أباه كثيرة , ويكاد يكون الأب هو الأكثر نصيبًا في الهجاء في شعر ابن بسام , وإذا عدنا إلى أسباب التمرد عند ابن بسام والسبب الأهم في ذلك هو الجانب الاقتصادي والمعيشي المتردي , وبالعودة إلى السبب الرئيس في كل هذا فهو يعود إلى قطيعة الوالد مع ابنه من الناحية المعيشية والاقتصادية , وبالتالي نستطيع أن نقول أن الوالد هو وموقفه قد دفع الابن إلى التمرد عليه , ولعل هذا هو من أهم الأسباب في تشكل أنماط التمرد الأخرى عند ابن بسام .

الخاتمة:

وبعد الانتهاء من هذا البحث المتواضع توصلنا إلى جملة من الملاحظات التي تخص أسباب وأشكال التمرد عند ابن بسام , وطرق التحول فيها بحسب التطورات الحاصلة في حياته معتمدين على النص الشعري بشكل أساس , فقد حققت صور التمرد حضورًا واسعًا في شعر ابن بسام البغدادي , ولعل التمرد الاجتماعي هو أهم وأوضح أنماط التمرد في شعره , وهو المؤثر الرئيس في سائر أشكال التمرد الأخرى , فكان من بين أسباب التمرد الاجتماعي , هو الحرمان وصعوبة الحالة المعيشة , فلعل الدو افع الأهم لكل أشكال التمرد لدي ابن بسام هو الجانب الاقتصادي والمعيشي , ولاسيما ما يخص التمرد على والأب والمجتمع .

([2088]) . ديوانه : ٢٥.

([2089]) . ديوانه : 44.

([2090]) . ديوانه : 47.

ومما سبق نستطيع القول أن من أهم أسباب تمرد ابن بسام هو ضيق حالته الاقتصادية التي تلت فترة الازدهاروالبذخ حتى صاريعادي كل من له مال أوكل ذي سلطة ووجاهة دون أن يغدق عليه عطاياه والمكافئات وأولهم أبوه , ويأتي بعده الأمراء المتنفذين , لذلك لا نجد ابن بسام يرمى سهام هجاءه نحو طبقات الناس العادية والعامة إلا نادرًا , كما أنه لا يثير الخصومات إلا بما يتعلق بالسبب الأساسي الذي ذكرناه وهذا واضح في شعره , فضلًا عن ذلك التغيرات الحاصلة على مستوى السلطة السياسية وتردي الحياة الاقتصادية أنتج لنا نوعًا آخر من التمرد عنده وهو التمرد على السلطة , وسببه الأهم منع الحاكمين عطاءهم عنه , وظلمهم له , وقد تميز ذلك بالتحدي الجريء نتيجة لعدم رضاه عليهم , فبين مساوئهم والاستهزاء بهم دون خوف منهم أو مهابة لهم , ولعل الذي شكل فارقًا في الأسباب وطريقة التمرد هو التمرد على الدين فلم نستطع اثبات الجانب الاقتصادي كسبب أساس فيه من جهة , وكذلك لحصول هذا التمرد على الأرجح في فترة الشباب والرفاهية قبل التحول إلى الفاقة والعيش البسيط من جهة أخرى ، كما أن ابن بسام في تمرده على الدين لم يكن من أصحاب الفرق المتمردة على الدين التي تنطلق من خلافات عقائدية أوفقهية تخالف السائد والمألوف , إنما تمرد على الدين من ناحيتين لازمها في بداية حياته وهما : الميل إلى الغلمان , والجهر في شرب الخمر , ومجالس الطرب والغناء , وهذان النموذجان من الظواهر المألوفة جدًا والشائعة في المجتمع العباسي ؛ نتيجة لما في هذا المجتمع من التحولات والتطوروالانفتاح على مجتمعات أخرى وثقافات أخرى , وما ترتب على ذلك من بعد عن الدين والقيم الاجتماعية الراسخة .

أما تمرده على الوالدين فقد تميز تمرده على أهل بيته بالتمرد الفاحش خاصة على أبيه فذكره بأبشع الكلمات والصفات واصفًا إياه بالبخل , وذمه بكل الصفات السلبية , ناقدً إياه لاهتمامه بالشكليات , وهذا ما يتنافى مع السنن الإلهية والقيم الإسلامية , وكانت الحاجة للمال والعوز, وقطع العطاء المادي من قبل الأب له الأثر البالغ في هذا النوع من التمرد .

المصادروالمراجع

.القرآن الكريم .

- التمرد في السير ذاتي النسائي العربي المعاصر، رسالة ماجستير، زواش رحمة، جامعة السانبا, الجزائر، 2011م .
- التمرد في شعر العصر العباسي الأول، فيصل حسين طحيمر العلي ، أطروحة دكتوراه، جامعة مؤته , الاردن، 2004م .
- ديوان ابن بسام ، تح : مزهر السوداني، مؤسسة المواهب , بيروت , لبنان ، ط1 , 1999م .
- شعرية التمرد , جان جبنيه ، إعداد وتقديم : مالك سلمان ، دار كنعان للنشر والتوزيع, 2016م .
- لسان العرب ، ابن منظور، دار إحياء التراث العربي , بيروت , لبنان , ج13 , ط3 , 1999م .
- معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين ، تحقيق: عبد السلام هارون، ، دار الفكر, سوريا , 1979م .